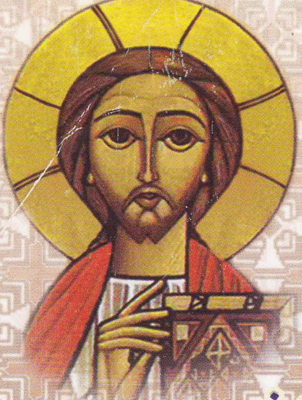


ماذا يقول يوحنا ذهبي الفم عن

حرية الإرادة

إعداد القمص تادرس يعقوب ملطي

بِاسم الآب والابن والروح القدس،

الإله الواحد. آمين.

اسم الكتـاب : حرية الإرادة عند القديس يوحنا الذهبي الفم.

إعــــــداد : القمص تادرس يعقوب ملطي.

الطبعـــــة : الأولى ٢٠٠٨ م

الناشــــــر : كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج.

المطبعــــة : مطبعة دير الشهيد مارمينا العجائبي بمريوط.

ت: ٠١٢٢١٥٢٨٥٦ & تليفاكس: ٠٣٤٥٩٦٤٥٢



صاحب الغبطة والقداسة

البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

حرية الإرادة

إذ خلق الله الإنسان كائنًا فريدًا على وجه الأرض، يحمل صورته وعلى مثاله (تك ١: ٢٧)، وأعطاه سُلطانًا على كل الأرض، تمتع بحرية الإرادة. إنها عطية إلهية فائقة. لو أنه أحسن استخدامها لكان مصيره أشبه بمصير الملائكة في علاقتهم بالله وعشقهم للصلاح والبرّ والقداسة. لكنه إذ أساء استخدامها أفسد الصورة الموهوبة له، ولم يعدْ على ذات المثال الذي خُلِقَ به، إنما فسَدَت إرادته، وفقد جمال قدراته وطاقاته الداخلية. لم يتركه خالقه المحب للبشر على هذا الحال، بل طأطأ السماوات ونزل إليه، وقدم له خلال الصليب النعمة الإلهية الفائقة كما رأينا في حديثنا عن "النعمة الإلهية عند القديس يوحنا الذهبي الفم".

الآن وقد وُهب للإنسان هذه النعمة أو تلك النعم التي نلناها من ملئه، "نعمة فوق نعمة" (يو ١: ١٦)، فهل تعمل هذه النعمة الإلهية فيه قسرًا؟

هل هي مُلزمة أن يعيش حسب إرادة الله، طاهرًا ومقدسًا؟

بمعنى آخر هل يفقد الإنسان حرية إرادته لتحرّكه النعمة الإلهية كيفما شاءت؟

لم ينحرف القديس يوحنا الذهبي الفم عن الفكر الإنجيلي، فمع تمجيد النعمة المجانية، والكشف عن قدراتها وفاعليتها في حياة المؤمن، حتى يرى القديس يوحنا كأن الإنسان بالنعمة قد تحول من إنسانٍ إلى ملاكٍ، لكنه يؤكد **تقديس الله للحرية الإنسانية**. فالنعمة لا تحوِّل الإنسان إلى آلةٍ تحركه بدون إرادته. فالإنسان ليس كما تصوّر أرسطو يحركه الله كقطع الشطرنج.

من صميم عمل النعمة الإلهية أن تؤكد للمؤمن أنه كائن حر، له كمال حرية الإرادة أن يطلبها لتسند إرادته وتقدِّسها وتقوِّيها، أو يرفضها، فيفقد قدرته على العمل، لكن بكمال حرية إرادته التي أفسدها ولم يرد تقدِيسها.

النعمة الإلهية والإرادة الحرة ليستا متعارضتين، بل هما متكاملتان، يطلب المؤمن النعمة، وتسند النعمة إرادته وتقدِّسها، فيزداد لهيب الشوق نحو النعمة والارتماء في أحضانها. وهكذا يدخل المؤمن في سلسلة رائعة ليختبر أعماق الحب الإلهي دون صراع بين النعمة والإرادة الحرة.

هذه النظرة لم تدفع القديس يوحنا الذهبي الفم كغيره من الآباء الشرقيين، سواء آباء الإسكندرية أو أنطاكية إلى الجدال الذي حدث بقوة وعنف بين القديس أغسطينوس المدافع عن النعمة وأتباع بيلاجيوس المدافعين عن الإرادة الحرة.

الإرادة الحرة والنعمة

يدعو القديس يوحنا الذهبي الفم الإرادة "**الرغبة القلبية**". ويُعلِّق على كلمات الرسول بولس: "لأن الله هو العامل فيكُم أن تُريدوا وأن تعملوا من أجل المسرَّة" (في ٢: ١٣)، قائلاً بأن النعمة الإلهية تعمل في الإرادة كما في السلوك والعمل حسب مسرة الله. فالنعمة تعطينا اللهيب القلبي نحو الحياة المُقدَّسة، ولكن ليس قسرًا، وهي تزيد هذا اللهيب أي تقوِّي إرادتنا المُقدَّسة في الرب.

يمكننا أن نقول إن من يطلب الحق والطريق والحياة، حتى وإن كان يجهل هذا كله، تُشرق النعمة الإلهية بنورها عليه، كما أشرق السيد المسيح بنوره على شاول الطرسوسي وهو يضطهد الحق لكن بجهالة. كانت أعماقه تطلب الحق الذي يجهله، بل ويجدِّف عليه ويضطهده، فلم يبخل الحق عليه، بل أشرق عليه وقاده إليه. حينئذ بإرادته الحرة سلّم الرسول إرادته الحرة للنعمة، واستعبد نفسه للحق الذي يُحرِّره. ومع كل تَمتُّع بخبرة لعمل النعمة يرتمي بإرادته بين يديها، لتُحرِّك كل شيءٍ حتى إرادته كيفما شاءت.

تُحرِّر النعمة الإنسان، فيشعر بكمال حرية إرادته، وبهذه الحرية يطلب الإرادة الإلهية لا إرادته! ولهذا فإن التجاوب مع

النعمة يُنمّي إرادته الحرة وشوقه نحو النعمة، ورفض النعمة يُنمي فيه التصلُّف، ويَحسب في قبول النعمة عبودية مُرّة، فيرفضها بالأكثر.

❖ لا تخافوا فإنكم لستم منهزمين، فإن **كلاً من الرغبة القلبية والعمل هما من الله**، فحيث تكون لنا الإرادة يقوِّي إرادتنا. كمثال: أرغب أن أمارس بعض الأعمال الصالحة، إنه هو الذي يعملها بذاتها، وبها أيضًا **يعمل في الإرادة**. يقول الرسول هذا من تقواه العظيمة، إذ يحسب كل أعمالنا الصالحة أنها هبات النعمة.

إذ يدعوها هبات، لا يُضعِف من حرية الإرادة، بل يمنحنا حرية الإرادة. فيقول: "**العامل فيكم أن تُريدوا**" (في ٢: ١٣). لا يحرمنا من حرية الإرادة، بل يُظهِر أن بعملنا الصالح ذاته نزيد رغبتنا القلبية في الإرادة. فالعمل يجلب عملاً، وهكذا عدم العمل يجلب عدم عمل. هل تعطي صدقة؟ فإن هذا يحثك أن تعطي أكثر. هل ترفض العطاء؟ ستصير بالأكثر غير ميالٍ إلى العطاء[1].

❖ إن كُنّا جميعًا نخلُص بالنعمة، قد يحتج البعض: لماذا لا يخلُص كل أحدٍ؟ لأنَّهم لا يريدون أن يتجاوبوا. فإن النعمة،

مع أنّها نعمة، لكنّها تخلِّص الذين يريدونها، وليس الذين يرفضونها ويهربون منها[٢].

❖ لا ينال النعمة الكل، إنما الذين يريدونها، والمجتهدون في امتلاكها، لأن ذلك في سلطان أولئك وُضِع لهم أن يصيروا أولادًا، فإن لم يريدوا فلا تتبعهم النعمة ولا تعمل عملاً يخصُّها، لأن إعطاء النعمة هو من قِبَلِ الله، أما قبول الإيمان فهو للإنسان.

حاجة الإرادة إلى النعمة

يرى القديس يوحنا الذهبي الفم أن النعمة تعمل في كل كيان الإنسان، خاصةً في إرادته، فإن التأثير عليها أصعب من التأثير على أي جانب آخر في طبيعة الإنسان. وكأن نعمة الله تتجلى بالأكثر بعملها فيها.

❖ التأثير على الإرادة أصعب من التأثير على الطبيعة[٣].

النعمة مستعدة لكنها لا تعمل قسرًا

يقول الرب على لسان زكريا النبي: "قال رب الجنود: ارجعوا إليَّ، يقول ربُّ الجنودِ، فأرجعَ إليكم، يقولُ ربُّ الجنود" (زك ١: ٣).

يشتاق الله أن يرجِع الكل إليه، فيرجِع هو إليهم. كل ما يطلبه هو أن يتحركوا ولو بشوقٍ قلبيٍ خفيف، فيلهب قلوبهم، ويقدِّس إرادتهم، ويحرِّكهم ليجدوه قد تحرَّك بنفسه إليهم. في مَثَل الابن الضال الراجع إلى أبيه (لو ١٥). لعلّ كل ما فعله الابن "رجع إلى نفسه"، فإذا بإدراكه لحب أبيه له يدفعه للتحرك ليجد أباه ينتظره، بل ويركض إليه، ويقع على عنقه، ويُقبِّله ولا يعاتبه حتى على رائحة الخنازير العالقة به وبثيابه، بل وطلب من أهل بيته أن يتحركوا جميعًا لاستقباله، بتقديم خاتم البنوة وثياب المجد والمائدة الثمينة وإقامة فرح أو حفل بهيج لعودته.

❖ النعمة دائمًا مستعدة! إنها **تطلب الذين يقبلونها** بكل ترحيب. هكذا إذ يرى سيدنا نفسًا ساهرة وملتهبة حبًا، يسكب عليها غناه بفيضٍ وغزارةٍ تفوق كل طلبته[٤].

❖ الله لا يُقيِّد رغباتنا أو إرادتنا بعطاياه، لكن ما نكاد نبدأ ونُظهر الاستعداد حتى نجده يعرض علينا فرصًا عديدة للخلاص[٥].

نعمة التغيير

يقول السيد المسيح: "لأنَّهُ ما مِن شجرةٍ جيِّدةٍ تُثمِرُ ثمرًا رديًّا، ولا شجرةٍ رديَّةٍ تُثمِرُ ثمرًا جيِّدًا، لأنَّ كل شجرةٍ تُعرَفُ مِن

ثمَرِها" (لو ٦: ٤٣-٤٤). قد يقول أحد: وما هو ذنبي إن كانت طبيعتي فاسدة، أي إن كنت شجرة رديئة؟ كيف أثمر ثمرًا صالحًا؟

إنه في إمكانية الإنسان أن يلجأ إلى نعمة الله، فيتغيّر من شجرةٍ رديئةٍ إلى شجرةٍ جيدةٍ، أو بالعكس يرفض النعمة، ويتركها فتتركه، ويتحوّل من شجرةٍ جيدةٍ إلى شجرةٍ رديئةٍ. لهذا يقول السيد المسيح نفسه: "اجعلوا الشجرةَ جيدةً وثمرَها جيدًا، أو اجعلوا الشجرةَ رديَّة وثمرَها رديًا" (مت ١٢: ٣٣). ففي سلطان الإنسان أن يصير إناءً للكرامة أو للهوان بقبوله نعمة الله أو رفضها.

يرى القديس يوحنا الذهبي الفم أن إحدى بركات محبة الله ونعمته عطية التغيير. الله وحده غير المتغير، هو هو أمسًا واليوم وإلى الأبد، لا يزيد لأنه لا نهائي، ولا ينقص. أما الإنسان فمتغير، فمن جهة إن سقط يمكنه بالنعمة أن يقوم، وخلال نعمة التغيير يمكنه ليس فقط أن يتجدد، وإنما أن ينمو على الدوام بلا توقف.

- ❖ إنه لم يقل إن الشجرة الرديّة لا يمكن أن تصير صالحة، وإنما قال لا تحمل ثمرًا جيدًا مادامت هي رديّة![6]

- ❖ اُنظر إنه ليس بسبب طبيعة الإنسان ولا عن إلزام يكون الإناء ذهبيًا أو خزفيًا، إنما يتحقق ذلك عن محض اختيارنا؛ وإلاَّ لما كان للإناء الخزفي أن يصير ذهبيًا، ولا أن ينحط

الذهبي إلى تفاهة الآخر... لقد كان بولس إناءً خزفيًا وقد صار ذهبيًا، وكان يهوذا ذهبيًا وصار خزفيًا[٧].

"**وهم إن لم يثبتوا في عدم الإيمان سيُطعَّمون، لأن الله قادر أن يُطعِّمهم أيضًا**" (رو ١١: ٢٣). هنا يؤكّد حريّة الإرادة الإنسانيّة، إذ يستطيع الإنسان أن يثبت في الإيمان أو يتركه، وأن يقبل الجحود أو يرفضه، ليس لأن الإنسان قادر على ذلك بذاته، وإنما لأن الله فاتح أحضانه باستمرار ليسند الكل، حتى في الإرادة الصالحة (أف ٢: ١٣)، دون تجاهل لحريته الإنسانية.

❖ ها أنت ترى عظم حرية اختيار الإنسان وعظمة فاعلية ذهنه، فإنه ليس شيء ثابتًا، لا الصلاح ولا الشرّ. ها أنت ترى كيف يرفع من نفسية الإنسان المُحطّم، ويحُط من الآخر الواثق في ذاته، فلا تخُر عند سماعك عن صرامة الله، ولا تنتفخ عند سماعك عن لطفه[٨].

لا يسلمنا إلى فكرٍ مرفوضٍ إلاَّ إذا أردنا ذلك

إن كان للإنسان حرية الإرادة، فلماذا قال الله: "أُقَسِّي قلبَ فرعون" (خر ٧: ٣). ما ذنب فرعون أن يتقسى قلبه ويتشدد ضد شعب الله، ليصنع الله عجائب ويخرجهم بيدٍ قويةٍ وذراعٍ رفيعةٍ؟

تأتي الإجابة على مثل هذا التساؤل في قول الرسول بولس: "وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم، أسلمهم الله إلى ذهنٍ مرفوضٍ ليفعلوا ما لا يليقُ" (رو ١: ٢٨). الله في محبته يود أن يُقدِّم نعمته لكل إنسانٍ، فمَن يرفض قبول النعمة مرة ومرات ويصر على الرفض، يمتلئ كأس شره ورفضه لعمل الله، فيتخلى الله عنه ليشرب مما ملأه لنفسه في كأسه.

هكذا في مثال فرعون قدَّم له الكثير من الفرص سواء ما سُجلت في سفر الخروج أو ما لم يُسجَّل. وحين كان يضغط عليه الله بالتأديب يظهر ندمًا، لكن سرعان ما يرجع إلى قسوة قلبه. كأن الله من محبته له يستخدم كل وسيلة لمنعه من ممارسة القسوة، وأخيرًا إذ أصر على قسوة قلبه، رفع الله يده عنه، ليسلك فرعون حسبما في قلبه القاسي. بهذا قال: "أُقَسِّي قلب فرعون"، أي أتركه "ليفعل حسب قسوة قلبه".

❖ كما أن الشمس تؤذي العيون الضعيفة ليس بسبب طبيعتها اللائقة بها، هكذا أيضًا بالنسبة للذين لا يبالون بكلمة الله. هكذا قيل في حالة فرعون إن (الله) قسَّى قلبه. هكذا يكون حال من هم مُصرون تمامًا على مقاومة كلمات الله.

هذا هو أسلوب الكتاب، كما قيل: "أسلمهم إلى ذِهْنٍ مرفوض" (رو ١: ٢٨)... فإن الكاتب هنا لا يُقدِّم الله بكونه هو نفسه يفعل هذه الأمور إنما يظهر أنها تحدث خلال شر الآخرين. فلكي يرعب السامع لذلك يقول الكاتب: "قسى الله"، "أسلمهم".

ولكي يُظهر أنه **لا يسلمنا ولا يتركنا إلاَّ إذا أردنا نحن ذلك**، اسمع ما يقوله: "أليست شروركم قد فصلت بيني وبينكم؟" (إش ٥٩: ٢ *LXX*). ويقول هوشع: "أنتم نسيتم ناموس إلهكم، وأنا أيضًا أنساكم" (هو ٤: ٦ *LXX*). وهو نفسه يقول: "كم مرة أردت أن أجمع أولادكِ... ولم تريدوا؟" (لو ١٣: ٣٤)...

إذ نعرف هذا ليتنا نبذل كل الجهد ألا نترك الله، بل نتمسك بالاهتمام بنفوسنا ومحبة بعضنا البعض. ليتنا لا نبتر أعضاءنا، فإن هذا عمل من هم مجانين، بل كلما رأيناهم في وضع شرير نترفق بهم بالأكثر[٩].

حرية الإرادة والاختيار

يعتمد البعض على بعض العبارات الخاصة بأن الله اختار المؤمنين الحقيقيين، المدعوين "**المختارين**"، فيعتذر بأنه ليس

مختارًا من قبل الله. وكأنه يلقي باللوم على الله الذي لم يختره، وأن لا حول له ولا قوة، وليس له الإرادة الحرة أن يكون مقدَّسًا للرب أو غير مقدسٍ.

خشي القديس يوحنا الذهبي الفم أن يعتذر أحد قائلاً: إنني لست مدعوًا لملكوت السماوات، لأنني أسقط في الخطية. والحقيقة أن الله "يريد أنَّ جميع الناس يَخْلُصُونَ، وإلى معرفةِ الحقِّ يُقْبِلُونَ" (١ تي ٢: ٤)، أما سقوطنا فليس لأن الله قد رفضنا، ولا لأنه سمح لنا بالتجارب، إنما لأن أساس قلبنا مبني على الرمل لا على الصخر، مبني على محبة العالم الواهية، لا على محبة ربنا يسوع الحقيقية.

دُعِيَ يهوذا ومات المسيح لأجله كما لأجل كل العالم، لكنه رُفض بالرغم من كل الإمكانيات التي أُعطيتْ له أكثر من جميعنا. والشعب غليظ القلب رفض الله وعبد العجل الذهبي بالرغم من المعجزات والبركات المعطاة له، بينما تاب سريعًا شعب نينوى الأممي.

❖ قد يقول قائل: **إنه القديس بولس الرسول، المدعو من المسيح!** وأيضًا يهوذا كان أحد الاثني عشر، ودعاه المسيح أيضًا، ولكن لم يكن مجرد حسبانه ضمن الاثنى عشر، ولا دعوته أفادته، لأن فكره لم يكن ثابتًا في الفضيلة.

فالقديس بولس الرسول بالرغم من مصارعته ضد الجوع وحرمانه من قوته الضروري مع تحمُّله لأتعابٍ كثيرةٍ كهذه يوميًا، سلك في الطريق المؤدي إلى السماء بغيرةٍ عظيمة، بينما يهوذا بالرغم من دعوته من الرب قَبل القديس بولس الرسول وتمتُّعه بنفس المميزات، وتعلَّم أسمى شكل للحياة المسيحية، وكان له نصيب في المائدة المقدسة[١٠]، التي هي أعظم الموائد المُرهبة، وأُعطيت له مثل هذه الموهبة أن يُقيم الميت ويُطَهِّر البرص ويُخرج الشياطين، كما سمع الكثير عن موضوع الفقر، وقضى وقتًا طويلاً في معية السيد المسيح نفسه، بل وكان موضع ثقة ليكون معه صندوق الفقراء، حتى تتلطف شهوته، إذ كان لصًا، ومع هذا كله لم يتحسن، رغم ما وُهب له من لطفٍ عظيمٍ كهذا. فإذ عرف المسيح أنه طماع، وأنه سيهلك بسبب محبته للمال، لم يعاقبه للحال، بل أعطاه صندوق الفقراء ليلطف من شهوته، حتى تكون له بعض الوسائل لإبطال طمعه، لعله يَخلُص من السقوط في تلك الهوة المريعة للخطية، ويوقف الشر العظيم[١١].

❖ ماذا يعني: "**اختارنا فيه**" (أف ١: ٤)؟ أنه تم بواسطة الإيمان به، أي في المسيح. فقد دبر هذا لنا بغبطةٍ قبل أن نولد، بل

وأكثر من هذا "قبل تأسيس العالم". ما أجمل هذه الكلمة: "**تأسيس**". كأنه يشير إلي العالم على أنه ساقط من ارتفاع شاهق جدًا. نعم، إن سمو الله عالٍ جدًا بطريقة تفوق الوصف، سموه بعيد جدًا، لا من جهة المكان، وإنما من جهة إمكانية الطبيعة للحديث عنه"[١٢].

حرية الإرادة ومثَل الخزّاف (رو ٩: ١٤-٣٣)

يقول الرسول بولس: "**فإذًا ليس لمن يشاء، ولا لمن يسعى، بل لله الذي يرحم.** لأنه يقول الكتاب لفرعون:" إني لهذا بعينه أقمتُكَ، لكي أُظهر فيك قوّتي، ولكي يُنادى باسمي في كل الأرض". فإذًا هو يرحم من يشاء، ويقسّي من يشاء. فستقول لي: "لماذا يلوم بعد؟ لأن من يقاوم مشيئته؟" بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله؟ ألعَلَّ الجِبلَةَ تقول لجابلها:" لماذا صنعتني هكذا؟" **أم ليس للخزّاف سلطان على الطين، أن يصنع من كتلةٍ واحدة إناءً للكرامةِ وآخر للهوان؟** فماذا؟ إن كان الله، وهو يريد أن يُظهِرَ غضبه، ويُبيِّنَ قوّتَهُ، احتمل بأناةٍ كثيرة آنيةَ غضبٍ مهيأةً للهلاكِ. ولكي يُبَيِّن غِنى مجده على آنية رحمةٍ قد سبق فأعدَّها للمجد، التي أيضًا دعانا نحن إياها، ليس من اليهود فقط، بل من الأمم أيضًا" (رو٩: ١٦-٢٤).

إن كانت رحمة الله ليست لمن يشـــاء ولا لمـــن يســـعى، فلماذا يُقدِّم لنا الله وصاياه، ويطلب منّا أن نقبله بإرادتنا الحـــرة ومشيئتنا الاختيارية؟ ولماذا يحثّنا في العهدين القديم والجديد على الجهاد حتى النهاية، قائلاً: "الذي يصبر إلى المنتهي فهذا يَخْلُصُ" (مت ١٠: ٢٢؛ ٢٤: ١٣؛ مر ١٣: ١٣)؟ وفي سفر الرؤيا يؤكّد الرب: "كُن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليـــل الحيـــاة" (رؤ ٢: ١٠)، بل ويقول لملاك الكنيسة التي في ثيـــاتيرا: "أنـــا عـــارف أعمالك ومحبتك وخدمتك وإيمانك وصبرك..." (رؤ ٢: ١٩)؟

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن هذا الحديث الرسولي كان خطوة تمهيدية للسامع لكي يلين روحه المتعجرفة التي تنتقد خطة الله نحو خلاص الأمم. فقبل أن يكشف سرّ خطـــة الله أراد أن يؤكد للسامع أنه ليس من حقه أن يقف هكذا موقف الناقـــد أو الديان لله. وكأن الرسول يقول: [عملنا هو أن نخضع لما يفعلـــه الله، لا أن نكون متطفلين محبين للاستطلاع، حتى وإن كنـــا لا نعرف حكمة تصرفاته. لذلك قال: "**من أنت أيها الإنسان الـــذي تجاوب (ضد) الله**"؟ (رو ٩: ٢٠)... من أنت؟ هل أنت شـــريكه في سلطانه (أي ٣٨)؟ بل! هل تجلس لتدين الله؟... إنه لم يَقُـــل: "من أنت الذي تجاوب الله؟" بل "**تجاوب ضد الله**". اُنظـــر كيـــف يرعبهم ويخيفهم، فيجعلهم في رعدةٍ، عوض تساؤلهم وتطفلهـــم.

هذا ما يفعله المعلم الممتاز الذي لا يجري وراء تخيلات تلاميذه الباطلة أيًا كانت، إنما يقودهم إلى فكره بانتزاع الأشواك عنهم وغرس البذار، فلا يجيب في كل الحالات على الأسئلة التي تُقدَّم له[١٣].]

❖ لم يقل هذا لينزع حرية الإرادة وإنما ليُظهر إلى أي مدى يجب أن نطيع الله، فإذ يُدعى الله خزَّافًا، نكون نحن بالنسبة له كقليل طين مهيأ قدامه، فيليق بنا أن نكف لا عن المجادلة والتساؤلات فحسب، وإنما حتى عن النطق أو التفكير بالكلية... هذه هي النقطة الوحيدة التي يطبقها الرسول في التشبيه، إذ لا يُقصد به إعلان نظام الحياة (إذ يُفسره الهراطقة أن الله يخلق طبيعتين صالحة وشريرة) إنما يقصد فقط الطاعة التامة والالتزام بالصمت...

هذا ما يجب مراعاته في كل الأحوال عند استخدام التشبيهات، فلا نطبقها في كل النواحي، إنما نختار ما هو مناسب فيها، والذي لأجله قُدِّم التشبيه، ونترك الباقي...

عندما يقول: **"أم ليس للخزَّاف سلطان على الطِّين أن يصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان؟"** (رو ٩: ٢١)، لا تظن أن الرسول قال هذا بخصوص الخليقة أنها مجبرة بلا حرية إرادة، إنما لمجرد إظهار السلطان وتدابير الله

المتنوعة... فإن فسّرناه بغير هذا ندخل في أخطاء متنوعة، فلو أنه كان يتحدث هنا عن الإرادة، وأنه هو خالق الإرادة الصالحة والإرادة الشريرة لأعفى الإنسان من المسئولية، ويظهر بولس نفسه متناقضًا مع نفسه، إذًا يُقدِّم على الدوام تقديرًا عظيمًا لحرية الإرادة[١٤].

بمعنى آخر، يؤكد **القديس الذهبي الفم** أن الرسول يود أن يُقدِّم جانبًا واحدًا من المثل وهو أن الله يعمل بنا ولا نقدر نحن إلا أن نطيع. لكنه لا ينزع عنا حرية إرادتنا، فإن أردنا الحياة معه يقوم هو بتغييرنا لمجد اسمه، بطريقة تفوق إدراكنا.

❖ ما يعنيه هو هذا: كان فرعون آنية غضب، أي كان إنسانًا قد ألهب غضب الله بقسوة قلبه. فبعدما تمتع بطول أناة كثيرة (من جهة الله نحوه) بقي بدون إصلاح، لهذا لم يدعه الرسول: "آنية غضب" فحسب، وإنما أيضًا: "مهيأة للهلاك". بمعنى أنه **هيأ نفسه بنفسه للهلاك التام**. لم يتركه الله محتاجًا إلى الأمور التي تشفيه، كما لم ينزع عنه الأمور التي تهلكه، لذا فهو بلا عذر. إذ يعرف الله ذلك، احتمله بأناة كثيرة ليرده للتوبة. فلو لم يود توبته لما احتمله بأناة كثيرة، أما كونه لم ينتفع بالأناة الكثيرة للتوبة، بل هيأ نفسه بالأكثر للهلاك،

استخدمه الله وسيلة لإصلاح الغير بمعاقبته، فيصلحون هم من حالهم؛ بهذا بيّن الله قوته.

لكن ليست رغبة الله إظهار قوته، إنما يود أن يظهر حنوّه بكل طرق ممكنة. إن كان بولس لا يود أن يظهر قوته بهذه الطريقة، إذ يقول: "ليس لكي نَظْهَرَ نحن مُزَكَّيْن، بل لكي تصنعوا أنتم حسنًا" (٢ كو ١٣: ٧) فكم بالأكثر يكون الله نفسه؟ لكن إذ يطيل الله أناته كثيرًا ليقوده إلى التوبة ولم يتب الإنسان، يحتمله الله زمانًا طويلاً لكي يظهر أولاً صلاحه وقوته حتى وإن كان الإنسان لم يضع في ذهنه أن ينتفع شيئًا من طول أناة الله العظيمة. عندئذ يظهر الله قوته بعقاب هذا الإنسان الذي لا يقبل الشفاء، وذلك كما يبيّن حبه للإنسان خلال رحمته نحو الذين ارتكبوا خطايا كثيرة وتابوا. لا يقال: "يبيّن حبه" بل "**مجده**" (رو ٩: ٢٣)، ليظهر أن هذا الحب هو مجد الله على وجه الخصوص، الأمر الذي يغير الله أكثر من كل شيء.

بقوله "**قد سبق فأعدَّها للمجد**" (رو ٩: ٢٣)، لا يعني أن كل شيء هو عمل الله وحده، لأنه لو كان الأمر كذلك لِما وُجد ما يمنع من خلاص كل البشر... فإن كان فرعون قد صار آنية غضب بسبب انحطاطه، فإن هؤلاء (اليهود) قد

صاروا آنية رحمة باستعدادهم للطاعة. وإن كان الجانب الأعظم للعمل هو من قِبَل الله، لكنهم ساهموا بالقليل، ومع ذلك لم يقل إنها: "آنية العمل الصالح"... بل **"آنية رحمة" ليظهر أن الله هو الكل**[١٥].

حرية الإرادة والظروف القاسية

يرى البعض أن الواقع العملي يحطم الإرادة الحرة التي للإنسان، إن وُجدت. فلا إرادة له في هياج الشيطان ضده، وليس من وجه للمقارنة بين الإنسان الضعيف والشيطان بقوّته وجبروته وسلطانه وحيله. وأيضًا أين هي الإرادة الحرة والعالم مملوء بالظلم، خاصة وأننا نرى نجاح الظالمين القساة وغناهم وسلطانهم وتجبرهم على الضعفاء.

هل تستطيع قوة خارجية أن تجبرك على الخطية فتؤذيك؟ بالتأكيد لا، فإنه بالرغم مما لدى العالم من مُغريات جذابة، وعند الشيطان من حيل وخداعات، لكن لا تستطيع قوة خارجية أن تنحرف بإنسان بغير إرادته، إلاَّ إذا ترك قلبه ينحرف داخليًا أولاً. فيوسف إذ كان في سلام مع الله لم تستطع الشهوة أن تسيطر عليه مع أنه كان شابًا، غريبًا، محرومًا من العطف

الأبوي والأموي والأخوي، ليس لديه كتاب مُقدس، ولا كاهن أو معلم، والخطية معروضة أمامه في أقوى صور الاغـراء، فـي مكان مغلق، لا يعلم أحد بشيءٍ عنه، تغريه سيدته بـل وتهـدده ممسكة بثيابه، ومع ذلك لم تضطرب نفسه، ولا سقط في الشهوة، بل في سلام كامل أجابها: "كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟" وعلى العكس داود النبي، الذي أقامه الله من المزبلـة إلى المُلك، المتزوج بأكثر من امرأة، صاحب المزامير الجميلـة المُعزية، في اللحظة التي نسي فيها الله، وخـرج يتـنعم علـى السطح، سقط في الخطية.

هذا هو محور المقال: "**لا يستطيع أحد أن يؤذي إنسـانًا ما لم يؤذِ هذا الإنسان ذاته**" الذي كتبه القديس يوحنا الذهبي الفم في منفاه، غالبًا قبل موته بفترة قصيرة. وقـد قمـتُ بتعريبـه ونشره، أرجو الرجوع إليه. فيما يلي بعض مقتطفات منه:

❖ لا يقدر أحد أن يؤذي إنسانًا ما لم يخطئ هذا الإنسان نفسه.

❖ لا يضرك أحد إن لم تضر نفسك بنفسك. إن كنت لا تخطيء فإن عشرات الألوف من السيوف تهددك، ولكن الله ينتشـلك حتى لا تقترب إليك[16].

- حتى الضيقات أو الفقر أو السجن أو المجاعات أو الميتات أو أي شيء آخر يحلّ بنا يستطيع الله أن يحوّل كل الأمور إلي نقيضها.
- لا نخاف من الفقر أو المرض أو أية ضيقة كهذه، فإننا نعرف أننا في طريقنا إلى حياة أفضل، والتي هي منيعة ضد الموت والدمار، ومتحررة من كل ظلمٍ[١٧].
- كن صادقًا مع نفسك فلن يؤذيك أحد.
- كما أن الأمور التي تبدو ضارة تكون نافعة للذين يحبون الله، فإنه حتى الأمور النافعة تصير ضارة للذين لا يحبونه[١٨].

لماذا تخاف من الشيطان؟

- قد يقول قائل: ألم يؤذِ الشيطان آدم، إذ أفسد كيانه وأفقده الفردوس؟ لا، إنما السبب في هذا يكمن في إهمال من أصابه الضرر، ونقص ضبطه للنفس، وعدم جهاده. فالشيطان الذي استخدم المكائد القوية المختلفة لم يستطع أن يخضع أيوب له، فكيف يقدر بوسيلة أقل أن يسيطر على آدم، لو لم يغدر آدم بنفسه على نفسه؟!

لماذا تخاف من الظلم؟

❖ ألا يصاب بالأذى من يتعرض للافتراءات، ويقاسي من نَهب الأموال، فيُحرَم من خيراته، ويُطرَد من ميراثه، ويناضل في فقر فادح؟! لا، بل ينتفع إن كان وقورًا. لأنه هل أضرّت هذه الأمور الرسل؟ ألم يجاهدوا دائمًا مع الجوع والعطش والعُري؟! وبسبب هذه الأمور صاروا مُمجَّدين ومشهورين وربحوا لأنفسهم معونة أكثر من الرب؟!

لماذا تخاف من المرض؟

❖ أي ضرر أصاب لعازر بسبب مرضه وقروحه وفقره وعدم وجود من يقيه؟ ألم تكن هذه الأمور تُضفّر له إكليلاً من زهور النصرة؟!

لماذا تخاف من مديح الناس أو ذمهم؟

❖ أي ضرر أصاب يوسف عندما اُتُّهِمَ بسمعة شريرة، في أرضه أو في غربته، فقد اُتهم بالزنا والفسق؟! وماذا أصابه من الذين صيروه عبدًا منفيًا؟! أليس بسبب هذه الأمور صار يوسف موضع إكرام وتقدير؟!

هل الفقر يؤذيك؟

❖ قد يقول قائل: لقد أصابني أذى بطريق أخر، وهو أنني وإن كنت لا أجدف بسبب سلب أموالي، لكني صرت عاجزًا عن تقديم الصدقة.

هذا اعتراض هيِّن وادِّعاء بسيط. لأنك إن كنت تحزن بسبب هذا، فاعلم أن الفقر لا يقف حائلاً أمام العطاء. لأنه مهما بلغ فقرك لن يصل إلى فقر المرأة التي لم تملك إلا ملء كف من الدقيق (١ مل ١٧: ١٢)، أو تلك التي لم يكن معها سوى فلسيْن (لو ١١: ٢). هاتان المرأتان قدمتا كل ما لديهما. وقد كانتا موضع إعجاب فائق. ففقر عظيم كهذا لا يقف عائقًا أمام العطف، إذ أن صدقة من فلسيْن كانت وفيرة، تكشف عن كرم زائد يفوق كرم كل الأغنياء، وبالنية السليمة والغيرة المتقدة فاقت هؤلاء الذين ألقوا نقودًا كثيرة.

إذن، حتى في هذا الأمر لا يصيبك أذى، بل بالحري تكون قد انتفعتَ، نائلاً بتقديم صدقة صغيرة مكافأة أكثر مجدًا ممن يدفعون مبالغ ضخمة.

هل التجارب تؤذيك؟

لا ينزع الله التجارب، بل يسمح لنا بها، ويُقدِّم لنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** الأسباب لذلك:

أولاً: ليعلمك أنك قد صرت أكثر قوّة.

ثانيًا: لكي تستمر متواضعًا، فلا تنتفخ بعظمة مواهبك، إذ تضغط التجارب عليك.

ثالثاً: لكي يتأكّد الشيطان الشرّير الذي قد يشك للحظة أنك قد تركته، فبمَحَكّ التجارب يتأكّد أنك تركته تمامًا، وقد أفلتّ من بين يديه.

رابعًا: بها تصير أكثر قوّة وصلابة من الصلب نفسه.

خامسًا: لكي تحصل على دليلٍ واضحٍ للكنوز المعهود بها إليك، فإن الشيطان لا يريد محاربتك ما لم ينظرك في كرامة أعظم. على سبيل المثال في البداية هاجم آدم، لأنه رآه يتمتّع بكرامة عظيمة. ولهذا السبب أيضًا هيّأ الشيطان نفسه للمعركة ضدّ أيوب، لأنه رآه مكلّلاً، يزكّيه الجميع[١٩].

❖ الإنسان المحب الملتصق بالله على الدوام لا تؤذيه الأمواج مهما كثرت، بل على العكس يخرج منها بقوةٍ جديدةٍ. أما الإنسان الضعيف المتخاذل، فإنه يسقط كثيرًا حتى ولو لم يوجد ما يضايقه[٢٠].

هل الاستشهاد يؤذيك؟

❖ لقد زهد (الشهداء) كل الأشياء التي على الأرض، ونظروا بعيني الإيمان ملك السماء وطغمات الملائكة تقف أمامه. لقد رسموا في أذهانهم السماء وبركاتها التي لا يُنطق بها. لقد نقلوا أفكارهم إلى السماء، ولم يعطوا اهتمامًا بعد ذلك لأي أمرٍ يمكن أن يروه بأعينهم الجسدية...

لم يتأثروا بالأمور المنظورة قط (أدوات العذاب)، بل عبروا بجوارها، إذ حسبوها أحلامًا وظلالاً، ونالت عقولهم أجنحة بسبب رغبتهم في الأمور العتيدة[٢١].

لماذا تخاف من الموت؟

❖ لماذا أتحدَّث عن النفي في أرضٍ غريبةٍ، أو الفقر، أو تشويه السمعة، أو الأسر، فإنه أي ضرر أصاب هابيل بموته، مع أنه مات موتًا عنيفًا، في غير أوانه، وبيديّ أخيه؟! أليس بسبب هذا صارت سمعة هابيل تجوب المسكونة كلها؟! أنظر إذن كيف أكد المثال أكثر مما وعدت، لأنه لم يقف عند حد أن الإنسان لا يضره غيره، بل ينال نفعًا عظيمًا على يديّ مناضليه.

احترامنا لحرية الإرادة

نظرة **القديس يوحنا الذهبي الفم** لفيض النعمة الإلهية العاملة فينا لكي نريد ونعمل، أي تقدس إرادتنا وأعمالنا، وتسندنا بقوة إلهية في الداخل والخارج؛ في المشاعر والعواطف والأفكار كما في الكلمات والعمل مع تأكيد حرية الإرادة له ثماره العملية في حياة المؤمن. فمن جانب تهبه روح الرجاء المفرِح واليقين في عمل الله فيه وبه، ومن جانب آخر يعتز بعطية الله الذي يُقدِّس حتى إرادته ويقويها. وأيضًا **يحترم إرادة الآخرين، حتى وإن اتسمت بالخطأ، فلا يستخدم العنف في تصحيح أفكار الغير وسلوكهم**، إنما يلجأ إلى الله الذي يعمل فيه ويُقدِّسه كي يعمل في إخوته ومن حوله ليقدِّسهم هم أيضًا ويعمل فيهم. هذا وبروح الوداعة والتواضع والحب يجتذبهم إلى نعمة الله. إنه لا يراهن ولا يحسب الشر خيرًا، والظلمة نورًا، إنما يترفق بالساقطين في الظلمة حتى يشرق شمس البرّ عليهم وينير أعماقهم ويقودهم بروحه القدوس.

كان الأعميان يصرخان، قائلين: "**ارحمنا يا سيِّدُ، يا ابن داود!**" (مت ٢٠: ٣١)، ومع هذا يسألهما: "**ماذا تُريدان أن أفعل بكما؟**" إنه يقدّس الإرادة الإنسانيّة التي كلَّلنا بها.

❖ **يَمنع المسيحيون من تصحيح آثام الخطاة بـــالقوة...** مـــن الضروري أن يصير الإنسان إلى حال أفضل، لا بالقوة بـــل بالإقناع. ليس لدينا سلطان موهوب لنا بالنـــاموس أن نقمـــع الخطاة، وحتى إن وُجد، فلسنا نعرف كيف نستخدمه، إذ يهب الله الإكليل للذين يُحفظون من الشر لا بالقوةٍ بل باختيارهم.

المحتويات

---

[1] *Homilies on Philippians, homily 8.*
[2] *Hom. On Rom., hom. 18.*
[3] *In Eph. hom 3.*
[4] *In Gen PG 53: 76, 77.*
[5] *De Mut. nom PG 51:143.*
[6] *In Rom hom. 13.*
[7] *In 2 Tim. hom 6.*
[8] *In Rom. hom 19.*
[9] *Homilies on St. John, 68: 2 – 3.*

[١٠] يرى بعض آباء الكنيسة أن يهوذا خرج قبل التناول من الإفخارستيا، هذا الرأي تميل إليه الكنيسة، وترفض رأي الذهبي الفم.

[11] *Treatise To Prove That No One Can Harm The Man Who Does Not Injure Himself.*
[12] *In Eph. hom 1.*
[13] *In Rom. hom 16.*
[14] *In Rom. hom 16.*
[15] *In Rom. hom 16.*

[١٦] راجع للمؤلف: كتاب "الكنيسة تحبك" ص ٣٦-٣٨.

[17] *Baptismal Instructions, 12: 12.*
[18] *In Rom. hom 15.*
[19] *In Matt. hom 13:1.*

[٢٠] العناية الإلهية، ترجمة عايدة حنا، ص ١٢.

[21] *Baptismal Instructions, 7:18, 19.*